اللّحـــن و النّحو

الأستاذ: الطاهر نعيجة
قسم اللغة العربية وآدابها
جامعة 8 ماي 1945 – قالمة

ملخّـــص:

درج العرب على تطبيق لغتهم فصيحة مبينة حتى إذا جاء القرآن أكّد هذه الفصاحة، ثم انفتح على الشعوب الأخرى حين فتحت الأمصار والأقاليم، فأخذ اللحن ينسرب إلى ألسنة الناس فكان لا بد لدرء هذا الخطر الداهم من أن يتأسّس علم ينهض بمسؤولية الحفاظ على العربية صافية نقية، فكان النحو الذي ضبط شتات هذه اللغة وعصم الألسنة من الخطأ والأقلام من الزلل.

وهذا البحث جاء ليقيم أود العلاقة بين ظاهرة اللحن من حيث هي انحراف عن الاستعمال السليم للغة كتابة ونطقا، وعلم النحو باعتباره ضابطا لمستعمل اللغة يقيه من عوامل الانحراف.

Le solécisme inflectionnel et la grammaire

Résumé

Les arabes ont pris l'habitude de parler leur langue éloquemment et bien formulée, et à l'avènement du Coran, cette même éloquence fut bien appuyée. Quand ils se sont

ouverts sur les autres peuples en conquérant les contrées et les territoires, le solécisme inflectionnel a trouvé son chemin aux langues des locuteurs, de là naquit le devoir d'épargner ce danger imminent en établissant une science dont la responsabilité est de préserver un arabe pur et net, d'où la grammaire qui a fixé la diaspora de cette langue tenant, de l'erreur, les langues et les plumes.

Cette recherche vise à évaluer le lien étroit entre le phénomène du solécisme inflectionnel étant la faute contre le bon usage écrit et parlé, et la grammaire étant une norme du locuteur l'empêchant des facteurs de la déviation.

Inflectional solecism and grammar

Abstract

The Arabs got used to speak their language eloquently and well formulated, and the advent of the Koran, the same eloquence was well supported. When they have become open to other peoples, conquering the lands and territories, inflectionnel solecism found its way to the languages of the speakers, there arose the need to set apart this imminent danger by establishing a science whose responsibility is to preserve Arabic pure and clear, hence the grammar that has set the diaspora of this language, keeping, from error, tongues and feathers.

This research aims to evaluate the close link between the phenomenon of the inflectional solecism as a fault against the good usage both written and spoken, and grammar being a speaker's standard preventing him from factors of deviation.

توطئـــة: إن منزلة اللحن رذيلة، ورتبته ضئيلة، و فضيلة النحو جليلة، و درجته نبيلة، و لذلك وقف العلماء ضد اللحن و آثاره مستنكرين من يقع فيه، و أن السبب الأساسي في وضع النحو – مهما كان واضعه – ما فشا من لحن عقب الفتوحات الإسلامية، وامتداد آفاق اللغة العربية إلى مجالات لم تتح لها من قبل، وفساد الألسنة حتى بالنسبة للعرب أنفسهم نتيجة اختلاطهم بالأعاجم، وقد كان هؤلاء الأعاجم ذوي ألسنة أعجمية فنزعوا لدراسة القرآن، فأتقنها كثير منهم وندّت على بعضهم، ففشا اللحن وانتشرت الألفاظ الأعجمية في بعض أشعارهم ونثرهم، وكثر خروجهم عن نسق اللّسان العربي فكان هذا دافعاً لبعض علماء المسلمين الغيورين على اللغة والدين، فقاموا بتسجيل القواعد والأسس التي يعرفون بها الصواب النحوي من الخطأ، وذلك حفاظاً على قواعد لغتهم من أن تشوبها شوائب أعجمية من ناحية، وحفاظاً على لغة القرآن الكريم من أن يدخله تحريف أو تصحيف على لسان من استعربوا وأسلموا من ناحية أخرى.

مفهـــوم اللحن: تطلق كلمة "اللحـــن" في اللغة العربية على عدة معان جمعها ابن برّى في قوله: "للّحن ستة معان: الخطأ في الإعراب، واللغة، والغناء، والفطنة، والتعريض، والمعنى"[1]

فللحن في اللغة معان ستة هي:

- **أولها:** الخطأ في الإعراب الذي شاهده قول الحكم بن عبدل الأسدي:

  ليت الأمير أطاعني فشفيته من كل من يكفي القصيد و يلحن[2]

- **ثانيهـــا:** اللغة الذي شاهده قول عمر–رضي الله عنه–: "تعلّموا السنة والفرائض واللحن كما تعلمون القرآن"[3]

- **ثالثهـــا:** الغناء وترجيع الصوت والتطريب الذي شاهده قول يزيد بن النعمان:

لقد تركت فؤادك مستجناً مطوقة على فنن تغنّى

يميـــل بها وتركبه بلحن إذا عنّ للمحزون أنّـــا[4]

- **رابعهـــا:** الفطنة الذي شاهده قول الرسول صلى الله عليه وسلم: "إِنّكُمْ لَتَخْتَصِمُونَ إِلَيَّ، وَعَسَى أَنْ يَكُونَ بَعْضُكُمْ أَلْحَنُ بِحُجَّتِهِ مِنَ الآَخَر، فَمَنْ قَضَيْتُ لَهُ بِشَيْءٍ مِنْ حَقِّ أَخِيهِ فَإِنَّمَا أَقْطَعُ لَهُ قِطْعَةً مِنْ النَّار"[5]

- **خامسها:** التعريض والإيماء الذي شاهده قول القتّال الكلابي:

ولقد لحنت لكم لكيما تفقهوا ووحيت وحياً ليس بالمرتاب.[6]

- **سادسها:** المعنى والفحوى الذي شاهده قول الله تعالى: «وَلَتَعْرِفَنَّهُمْ فِي لَحْنِ القَوْلِ »[7]

واللحن في الاصطلاح اللغوي الخطأ في اللغة: في أصواتها أو نحوها أو صرفها، أو معاني مفرداتها، فإذا أخطأ الناطق أو الكاتب في واحدة من تلك، فهو قد (لحن، والمضارع (يلحن) وهو (لاحن)[8]

ويعد الخروج على السنن المألوفة في اللغة العربية عند اللغويين القدامى خطأ لغوياَ أطلقوا عليه اسم اللحن، إذ وصفوه بأنه عيب وقبح ينبغي عدم الوقوع فيهما، وهذا ما دعا إلى نشوء مبدأ تنقية اللغة العربية[9]

وقد عرف الدكتور محمد عيد اللحن بأنه: "خروج الكلام الفصيح عن مجرى الصحة في بنية الكلام أو تركيبه أو إعرابه بفعل الاستعمال الذي يشيع أولاً بين العامة من الناس ويتسرب بعد ذلك إلى لغة الخاصة...[10]

التأليف في ظاهرة اللحن: إنّ موضوع اللحن يتصل بدراسة التطور اللغوي من جهة، وبآثار الاختلاط اللغوي الذي حدث في الأمصار الإسلامية من جهة أخرى، ذلك أن كتب اللحن تبحث في تصويب الاستعمال غير الصحيح والتنبيه عليه، فهي من هذه الناحية تعد كتباً تدرس الأساليب اللغوية أكثر من كونها تدرس المفردات، على أنها اهتمت بالمفردة وبالصوت وبالحركة، غير أن اهتمامها بكل أولئك كان ضمن اهتمامها بالأسلوب، وهي أيضاً تحفظ لنا تاريخ تسرب العامية إلى الألسن من حيث أن هذا الخطأ الذي تنبه عليه هو الذي صار فيما بعد الصورة التي استقرت عليها اللغة في أمصارنا العربية[11].

والملاحظ أن كتب اللحن ومصنفاته اختلفت في عناوينها واختلفت في مادتها ومنهجها إلا أنها تشترك في موضوعها وهدفها وهو: بيان الصحيح أو الفصيح لإتباعه، وبيان الخطأ أو اللحن لاجتنابه[12]، ومن هذه المصنفات:

1- ما تلحن فيه العامة للكسائي ت 189هـ.
2- إصلاح المنطق لابن السكيت ت 244 هـ .
3- أدب الكاتب لابن قتيبة ت 276 هـ .
4- الفصيح لثعلب ت 291 هـ .
5- لحن العامة للزبيدي ت 379هـ .
6- التلويح في شرح الفصيح للهروي ت433هـ .
7- تثقيف اللسان وتلقيح الجنان لابن مكي.ت 501هـ .
8- درة الغواص في أوهام الخواص للحريري ت 516هـ .
9- الاقتضاب في شرح الكتاب لابن السيد ت 521هـ .
10- شرح أدب الكاتب للجواليقي ت 539هـ.

11- تكملة إصلاح ما تغلط فيه العامة للجواليقي ت 539هـ .
12- المدخل إلى تقويم اللسان وتعليم البيان لابن هشام اللخمي ت577ه.
13- تقويم اللسان لابن الجوزي ت597هـ .
14- ذيل فصيح ثعلب للبغدادي ت 629هـ .
15- الجمانة في إزالة الرطانة لابن الإمام ت بعد 827هـ .
16- التنبيه على غلط الجاهل والنبيه لابن كمال باشا ت 940هـ .[13]

لحن العامــة ولحن الخاصــة:

تفسر المعجمات العامة، بأنها خلاف الخاصة، وتفسر الخاصة بأنها خلاف العامة في المعجم الوسيط الذي أصدره مجمع اللغة العربية في القاهرة، لم يخصص هذا العموم في لفظي العامة والخاصة، بل قال كما قالت المعجمات: "العامة خلاف الخاصة"[14]، و "الخاصة خلاف العامة"[15].

ولكن هذا المعجم ألقى بعض الضوء على كلمة "العامة" حين قال "إن العامي من الكلام: ما نطق به العامة على غير سنن الكلام العربي، والعامية: لغة العامة، وهي خلاف الفصحى"[16].

فالمقصود بالعامة أو العوام الذين ورد ذكرهم في معظم كتب اللحن هم المتعلمون من عامة الناس أي معظمهم، فهم كما يصفهم الزبيدي ت 379هـ، المتعلمون من جملة الكتاب، وعالية الخدمة الذين تسربت إلى كتاباتهم ورسائلهم أخطاء شاع استعمالها نتيجة للغفلة وعدم التيقظ في حين أن الدهماء والسقاط أخطاؤهم ناشئة من الجهل لا غير[17].

ويدل على ذلك بجلاء قول الجاحظ ت 255هـ " وإذا سمعتموني أذكر العوام فإني لست أعني الفلاحين والحشوة والصناع والباعة، ولست أعني

أيضاً الأكراد في الجبال وسكان الجزائر في البحار... وإنما الأمم المذكورون من جميع الناس أربع: العرب وفارس والهند والروم، والباقون همج وأشباه الهمج، وأما العوام من أهل ملتنا ودعوتنا ولغتنا وأدبنا وأخلاقنا، فالطبقة التي عقولها وأخلاقها فوق تلك الأمم ولم يبلغوا منزلة الخاصة منا، على أن الخاصة تتفاضل في طبقات أيضاً "[18].

وقد حدد ابن قتيبة ت 276هـ في خطبة كتابه (أدب الكاتب) معنى العامة أيضا فقال: إنه لا يقصد رعاع الناس، وإنما كلامه موجه إلى كتّاب أهل زمانه الذين إستطابوا الدّعة وإستوطؤوا مركب العجز وأعفوا أنفسهم من كد النظر وقلوبهم من تعب التفكير، حين نالوا الدرك بغير سبب، وبلغوا البغية بغير آلـــة[19].

وقد ألف الكسائي ت 189هـ كتابه (ما تلحن فيه العامة) للرشيد هارون الذي يعد من خاصة المتعلمين جاء في مقدمته: "هذا كتاب ما تلحن فيه العوام مما وضعه علي بن حمزة الكسائي للرشيد هارون، ولابد لأهل الفصاحة من معرفته"[20].

وقد ألف بعضهم في لحن الخاصة ممن تأثروا بالعامة منهم مثل الحريري ت 516هـ في كتابه (درة الغواص في أوهام الخواص)، وخصص بعضهم أبواباً في كتبهم للحن الخاصة أيضاً من القرّاء والمحدّثين والفقهاء، فكان ابن مكي الصقلي ت 501هـ من السباقين على ذلك بكتابه (تثقيف اللسان وتلقيح الجنان).

مظاهـــر اللحن:

تتوزع أمثلة اللحن على أنواع تضم ما يتصل بالأصوات والصرف والنحو والدلالة، ويلاحظ من خلال النظر في مصنفات اللحن أن

أمثلة اللحن في النحو قليلة بل نادرة، وأن أمثلة اللحن في الأصوات قليلة أيضاً، أما أمثلة اللحن في الصرف فهي التي تمثل القسم الأكبر من الأمثلة، ويليها ما يتصل بالدلالة من أمثلة ومسائل[21]

* فمن أمثلة اللحن فــي الأصوات:

– "ويقولون: هو مفقوع العين، قال محمد: والصواب: هو مفقوء العين، وقد فقأت عينه، وقد تفقأ الرجل شحماً[22]

– "ويقولون: في الطعام زوال، قال محمد: والصواب: زُوانٌ، وزؤان بالهمز، وهي حبة تكون في الحنطة تُنقى منها، ويزعمون أنها تُسكر، قال رؤبة: من الزوان مطحن الحشيش"[23]

– " وكذلك يقولون: مَخدّة التي توضع تحت الخد، قال محمد والصواب، مِخدّة بالكسر وهي أعظم من المصدغة، وقال يعقوب: تدرّعت بالمدرعة، وارتَفقْت بالمرفقة"[24]

– "ويقولون: فلان شديد الغِير ة على أهله، قال أبو بكر: والصواب الغَيرة بالفتح، يقال: غار الرجل يغار غَيرةً وغاراً، وقال اللحياني: فلان شديد الغيرة على أهله، ورجل غيور من قوم غُير، وامرأة غيرى من نسوة غَيارى"[25]

– "ويقولون للمِدّة الخارجة من الجرح: قــيحٌ، قال محمد: والصواب قَـــيْحٌ، بفتح القاف، وقد قاح الجرحُ يقيح قيحاً، ويُقال: أقاح يقيح إقاحةً، ويُقال للقيح أيضاً الوَعْيُ"[26]

***ومن نمــاذج اللحن في الصرف:**

– "قولهم: دخل في غَمار الناس، هذا مما يغلط فيه العامة والعرب تقول: دخل في خَمار الناس، أي فيما لا يواريه ويستره منهم حتى لا يبين"[27]

– " قال أبو عمرو: يُقال: ازْلَـــــلْتُ له زِلة، ولا يقال: زَلَــلْتُ، وقد أغلقت الباب فهو مُغلق، ولا يقال مغلوق، وقد أقفلته فهو مقفل ولا يقال مقفول"[28]

– "ويقولون للمطهرة: ميضة، وبعضهم يقول ميضات، والصواب: ميضأة بالهمزة، والجمع مواضئ"[29]

– "ويقولون: يوم مهول، والصواب: يوم هائل، وأمر هائل، يقال: هالني الشئ يهولني هَوْلا فهو هائل"[30]

– "وتقول: هذه مِروحة ومِخدة ومِقنعة ومِلحفة ومِلة ومِذية ومِغرفة ومِقطرة ومِطرقة ومِدقة ومِقرعة ومِنطفة ومِبرد ومِطرد ومِبْضَع ومِنديل، والمِسلح – موضع بطريق الكوفة ــ والمِرنج ــ النِجم، كله بكسر الميم والعامة تفتحها"[31]

***و من نماذج اللحن في التركيب و الإعراب:**

– "تقول: شكرت لك ونصحت لك، ولا يقال: شكرتك ونصحتك، وقد نصح لفلان وشكر له، هذا كلام العرب قال الله تعالى: «وَلَا يَنْفَعُكُمْ نُصْحِي إِنْ أَرَدْتُ أَنْ أَنْصَحَ لَكُمْ»[32]..."[33]

– "ويقولون: ذهبت إلى عنده، فيخطئون فيه: لأن (عند) لا يدخل عليه من أدوات الجر إلا (من) وحدها، ولا يقع في تصاريف الكلام مجرورا إلا بها، كما قال سبحانه «قُلْ كُلٌّ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ» [34] وإنما خصت(من) بذلك لأنها أم حروف الجر"[35]

– "ويقولون: جاءني القوم إلاك وإياك وإياه، فيوقعون الضمير المتصل بعد إلا كما يوقع بعد (غير) في مثل قولك: جاء القوم غيرك، فيوهمون كما وهم أبو الطيب في قوله:

ليس إلاك يا علي همام سيفه دون عرضه مسلول.

والصواب أن لا يوقع بعد (إلا) إلا الضمير المنفصل كما قال تعالى «أَمَرَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ»[36] ....."[37]

– "ويقولون: كلا الرجلين خرجا، وكلتا المرأتين حضرتا، والاختيار أن يوحد الخبر فيهما فيقال: كلا الرجلين خرج وكلا المرأتين حضرت: لأن كلا وكلتا اسمان مفردان وضعا لتأكيد الاثنين والاثنتين وليسا في ذاتهما مثنيين، ولهذا وقع الإخبار عنهما كما يخبر عن المفرد، ولهذا نطق القرآن في قوله تعالى: «كِلْتَا الْجَنَّتَيْنِ آَتَتْ أُكُلَهَا» [38] ولم يقل: آَتَتَا...[39]

*** ومن نماذج اللحن في الدلالــة:**

– "ومما تضعه العامة في غير موضعه قولهم: (خرجنا نتنزه) إذا خرجوا إلى البساتين، وإنما (التنزه) التباعد عن المياه والأرياف، و منه قيل: (فلان يتنزه عن الأقذار) أي يتباعد منها، ومنه قول الهذلي:

أقبُّ طريدٌ بنُزه الفلا ة لا يَرِدُ الماءَ إلا ائتياباَ." [40]

– "و من ذلك "الطَربُ" يذهب الناس إلى أنه في الفرح دون الجزع و ليس كذلك، إنما الطرب: خفّةُ تصيبُ الرجل لشدة السرور، أو لشدة الجزع"[41]

– "و يقولون: فلان يستأهل الإكرام، وهو مستأهل للإنعام، ولم تسمع هاتان اللفظتان في كلام العرب، ولا صوّبهما أحدٌ من أعلام الأدب، ووجْه الكلام أن يُقال: فلان يستحق التكرمة، وهو أهل للمكرمة.." [42]

– "و يقولون: لدغته العقرب، والاختيار أن يقال لكل ما يُضرب بمؤخره كالزنبور والعقرب: لَسَعَ، ولما يقبض بأسنانه كالكلب والسباع: نَهَشَ، ولما يضرب بفيه كالحية: لدغ، ومنه قول بعض الرجاز:

إن العجوز حين شاب صدغها كالحية الصّماء طال لدغها." [43]

– "ويقولون لِحاف للغطاء الذي يكون على الأسرة خاصّةً، قال أبو بكر: واللِّحاف والملحفة والملحفُ: كل ما التحِفَ به من ثوب أو رداء أو كساء، في حال قيام، أو قعود أو اضطجاع"[44]

موقف السلف من اللحن :

كان سلفنا الصالح يحرصون أشد الحرص على سلامة اللغة وإبعادها عن مواطن الانحراف والزلل، ويَعدُّون اللحن كبيرة تخدش مكانة اللاحن وسمعته، وخير شاهد على ذلك قول الرسول صلى الله عليه وسلم: "ارشدوا أخاكم فقد ضل"، قاله عندما لَحِن رجل بحضرته، واعتبر الخروج على القاعدة ومقارنة اللحن ضلالاً، وطلب ممن حوله من الصحابة أن يرشدوه إلى الطريق الصحيح[45].

– وهذا أبو بكر الصديق رضي الله عنه يقول: "لأن أقرأ فأسقِط أحب إليَّ من أن أقرأ فألحن"[46].

– و قيل أن عمر بن الخطاب أمير المؤمنين كان يضرب ولده على اللحن ولا يضربهم على الخطأ.

– وكان ابن عمر رضي الله عنهما يضرب ولده على اللحن[47].

– وروي أن كاتباً لأبي موسى الأشعري كتب إلى عمر بن الخطاب رضي الله عنه: (من أبو موسى)، فكتب عمر إلى أبي موسى رضي الله عنهما: "إذا أتاك كتابي هذا فاضرب كاتبك سوطاً و اعزله عن عملك"[48].

– وقال عمر بن عبد العزيز: "إن الرجل ليكلمني في الحاجة يستوجبها فيلحن فأرده عنها وكأني أقضم حب الرمان الحامض لبغضي استماع اللحن، ويكلمني آخر في الحاجة لا يستوجِبُها فأجيبه إليها التذاذاً لما أسمع من كلامه وقال – يرحمه الله –: " أكاد أضرس إذا سمعت اللحن"[49].

ومن الشواهد على ازدراء سلفنا بالذين يلحنون ما يروون: "أن رجلاً من عليّة أهل الشام استأذن على عبد الملك بن مروان وبين يديه قوم يلعبون بالشطرنج فقال: يا غلام غطِّها، فلما دخل الرجل فتكلم فلحن، قال عبد الملك: يا غلام اكشف عنها الغطاء فليس للاحن حرمة"[50]، فاللحن إذن معيب مشين حتى لقد عدَّه مسلمة بن عبد الملك أقبح من الجدري في الوجه[51]، وأصبح سراة القوم وفصحاؤهم يتهيبون الوقوع فيه، فعبد الملك بن مروان يرد على من سأله عن أسباب إسراع الشيب إليه بقوله: "شيبني ارتقاء المنابر وتوقع اللحن"[52]، والحجّاج بن يوسف وهو من هو في الفصاحة يتهيّب الوقوع في اللحن فيستأنس بملاحظات العلماء، يقول ابن سلام: أخبرني يونس بن حبيب، قال الحجّاج لابن يعمر: أتسمعني ألحن؟ قال: الأمير أفصح الناس، قال يونس: وكذلك كان، ولم يكن صاحب شعر، قال: تسمعني ألحن؟ قال: حرفاً، قال: أين؟ قال في القرآن، قال: ذلك أشنع له، فما هو؟ قال: تقول: «قُلْ إِنْ كَانَ آبَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ وَإِخْوَانُكُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَالٌ اقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَارَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَاكِنَ تَرْضَوْنَهَا أَحَبَّ إِلَيْكُمْ مِنَ اللهِ وَرَسُولِهِ»[53]، قرأها بالرفع كأنه لما طال عليه الكلام نسي ما ابتدأ به، والوجه أن يقرأ (أَحَبَّ إليكم) بالنصب على خبر كان وفعلها، قال: وأخبرني يونس قال: لا جَرَمَ، لا تسمع لي لحناً أبداً، قال يونس: فألحقه بخراسان وعليها يزيد بن المهلب"[54].

مفهوم النحـــو:

إن كلمة (النحو) في اللغة تعني القصد والطريق، تقول: نحاه ينحوه وانتحاه، قال الأزهري: "قال الليث: النحو القصد نحو الشيء، نحوت نحو

فلان إذا قصدت قصَدهُ، قال: "وبلغنا أن أبا الأسود وضع وجوه العربية وقال للناس أنحوا نحوه فسُميِّ نحواً"[55].

وقد جمع الإمام الداودي معاني النحو في اللغة فقال:

للنحو سبعُ معانٍ قد أتت لغة جمعتها ضمن بيت مفردٍ كَمُـــــلاَ

قصدٌ ومثلٌ ومقدارٌ و ناحيةٌ نوعٌ وبعضٌ وحرفٌ فأحفظ المثلا[56]

وأما في الاصطلاح فالنحو هو علم يعرف به كيفية التركيب العربي صِحَّة وسقاماً، وكيفية ما يتعلق بالألفاظ من حيث وقوعها فيه"[57]، وقال الأزهري: "قال بن السكيت: نحا نحوه ينحوه إذا قصده، ونحا الشيء ينحاه وينحوه إذا حرّفه، ومنه سمَّي النحوي نحوياً لأنه يحرِّف الكلام إلى وجوه الإعراب[58]، وقال الأزهري أيضاً: "ثبت عن أهل اليونان فيما يذكر المترجمون العارفون بلسانهم ولغتهم أنهم يسمون علم الألفاظ والعناية بالبحث عنه نحواً، فيقولون: كان فلان من النحويين، ولذلك سمي يوحنا الإسكندراني يحيى النحوي للذي كان حصل له من المعرفة بلغة اليونان"[59].

ويقول ابن جني: " النحو هو انتحاء سَمْتِ كلام العرب في تصرفه من إعراب وغيره: كالتثنية والجمع، والتحقير والتكسير، والإضافة والنسب، والتركيب وغير ذلك، ليلحق من ليس من أهل اللغة العربية بأهلها في الفصاحة فينطق بها وإن لم يكن منهم، وإن شذ بعضهم عنها رُدّ به إليها، وهو في الأصل مصدر شائع أي نَحَوْتُ نحواً، كقولك قصدت قصداً، ثمّ خُصَّ به انتحاء هذا القبيل من العلم "[60].

ولعله خير تعريف للنحو فالنحو عند ابن جني على هذا المفهوم هو محاكاة العرب في طريقة كلامهم تجنباً للحن، وتمكيناً للمستعرب في أن يكون

كالعربي في فصاحته وسلامة لغته عند الكلام، فالعلم الذي يضع القواعد التي تحقق هذين الغرضين هو علم النحو[61].

ويضع أمامنا نص ابن جنـــي الحقائق الآتيـــة:

أ- أن الدرس النحوي عند العرب لم يكن (معيارياً) كما يذهب بعض الباحثين لكنه تقديم لكلام العرب (كمل هو)، وهو ما يمكننا أن نفهمه من لفظة (انتحاء) ومن الطريقة التي فسر بها ابن جني كثيراً من الظواهر النّحوية.

ب- أنه لم يقصر النحو على الإعراب كما يذهب بعض من كتب في النحو من المتأخرين.

ج- أنه جمع الصرف و النحو في علم واحد و ذلك واضح من ذكره للجمع و التصغير (التحقير) والتكسير والنسب الخ.

د- أن حصره النحو في (كلام العرب) دليل على إدراكه الواضح أنَّ النحو مجاله (الجملة) وذلك واضح من مواضع كثيرة من الكتاب، و منها ما يُقرره فيه:"أن الكلام إنما وُضع للفائدة، و الفائدة لا تُجنى من الكلمة الواحدة، و إنما تُجنى من الجمل و مدارج القول "[62]

والحقيقة أنَّ ابن جني قد سبق علماء عصره بهذا النص، و إن شذّ بعضهم عنها، و جاء بما تعارف عليه اللغويون المحدثون. فقد جمع في هذا النص بين لونين من الدراسات: صرفية وتتضح في التثنية والجمع والتحقير (التصغير)، و نحوية و تتضح في الإضافة و الإعراب و التركيب. و هذان النوعان من الدراسة وهما الصرف **MORPHOLOGIE** والتركيب **SYNTAXE** يكونان في الدراسات اللغوية الحديثة ما يُسمى بعلم النحو **.GRAMMAR** [63]

الغايـــة من علم النحو:

يكاد الدارسون يجمعون على أنَّ النحو العربي نشأ لحفظ القرآن من اللحن، والواقع أنه لم يكن هذا العمل يهدف إلى حفظ النص القرآني من اللحن فقط، كما وقر في الأذهان، و إنما كان يهدف إلى غاية أبعد في أصول الحياة الإسلامية، ذلك أن المسلمين عرفوا- بدايةً – أن عليهم أن يقرؤوا القرآن وأن يفهموه، لأنه هو الذي ينظم حياتهم، ومن ثم نستطيع تفسير نشأة الحركة العقلية العربية كلها بأنها كانت نتيجة نزول القرآن الكريم، فهي كلها من نحو و صرف و بلاغة و تفسير و فقه و أصول و كلام تسعى إلى هدف واحد هو فهم النص القرآني الكريم.

و لا ينبغي أن يغيب عن بالنا أن أبا الأسود كان من أئمة القراء، و أن ابن أبي إسحاق الحضرمي وعيسى بن عمر كانا من القراء، و أن أبا عمرو بن العلاء هو إمام البصرة في القراءة وأحد القراء السبعة كذلك. النحو إذن نشأ لفهم القرآن و فرق كبير بين علم يسعى لفهم النص، و علم يسعى لحفظه من الخطأ و اللحن، و لو كانت الغاية منه حفظ النص من اللحن لما أنتج العرب هذه الثروة الضخمة في مجال الدرس اللغوي و النحوي، ومحاولة (الفهم) هذه هي التي حددت مسار المنهج، لأنها ربطت درس النحو بكل المحاولات الأخرى التي تسعى لفهم النص، و من ثم فإن دراسة منهج النحو عند العرب لا تكون صحيحة إلا مع اتصالها بدراسة العلوم العربية الأخرى و بخاصة الفقه و الكلام.[64]

أثـــر اللحن فـــي نشأة النحو: مما سبق ذكره يتضح أن اللحن وآثاره الشائنة كان بمثابة الرحى الذي دارت عليها فكرة وضع علم يقيِّم انحراف السليقة العربية و صيانتها من الوقوع في الخطأ والهلاك، و يعد

اللحن هو المحرك الفعَّال والرئيسي في نشأة التفكير لوضع علم النحو على يد أبي الأسود الدؤلي و من جاء بعده من البصريين و غيرهم، و لكن هذا لا يمنع وجود عوامل أخرى كمُنت وراء الشروع في النهوض بهذا العمل العملاق، حيث أنه لو كان مرد اللحن في اللغة مدعاةً لوضع النحو لوجدنا على الأقل محاولات فيه أيام الرسول الكريم صلى الله عليه وسلم أو أيام الخلفاء الراشدين الأول من بعده، إذ أن اللحن موجود في البيئة العربية منذ ذلك التاريخ، لكن ذلك لا ينف أن يكون اللحن أهم أسباب نشأة النحو. (65)

فجميعنا يعلم مدى الدور الخطير الذي يلعبه الدين و العقيدة في حياة الأمم ونفوس أبنائها، ذلك لأنه يحدد مصير الإنسان في حياته الدنيا و الآخرة من ذلك يبدو أن كثيراً من المحاولات الأولى للدرس اللغوي التي نمت في أماكن مختلفة من العالم كانت مرتبطة بالدين والعقيدة، حيث يلعب الدين دوراً بارزاً و فعالاً في نشاط هذه العلوم و الدراسات و توجيهها، فالعرب كانت لهم ظروفهم الدينية و العقائدية فهم بحاجة إلى ما يحفظها لهم أو يساعدهم على ذلك الأمر و خاصة أن الخط العربي الذي كُتب به المصحف العثماني لا يعرف النقط و لا الشكل، و لهذا لم يكن الخط بمأمن من التصحيف والتحريف.

ومن ذلك لجأ العرب لمعالة هذا الأمر حتى يأمنوا أي لبس قد يأتي من تلك الناحية، و دفعهم لذلك – أي وضع النحو– حرص العرب المسلمون حرصاً شديداً على أداء فصيح سليم إلى أبعد الحدود في الفصاحة و السلامة، وخاصة بعد أن أخذ اللحن يشيع على الألسنة و تطرق ذلك إلى قراءتهم للقرآن الكريم، هذا فضلاً عن أن جميع الروايات تجزم بأن نشأة النحو لم تكن إلا لتحقيق هدفين:

– أولهما: الحفاظ على القرآن الكريم من اللحن و الفساد.

– وثانيهما: الخوف على العربية عموماً من الخلطة و العجمة.[66]

فإذا تتبعنا الروايات المختلفة لنشأة اللحن واستقصينا أنواعه، فسنجد أن اللحن في الإعراب هو الذي حدا بأبي الأسود الدؤلي ت 69هـــ أن يضع علم النحو. فقد روي أن أبا الأسود سمع رجلاً يقرأ: «إِنَّ اللهَ بَرِيءٌ مِنَ المُشْرِكِينَ وَرَسُولُهُ »[67] فقال: لا أظن يسعني إلا أن أضع شيئاً أُصلح به نحو هذا فوضع النحو.[68]

ومنه أيضاً ما روي من أنه جاء إلى زياد قوم فقالوا: أصلح الله الأمير توفي أبانا وترك بنون، فقال زياد: توفي أبانا و ترك بنون! ادع لي أبا الأسود، فقال:ضع للناس العربية.[69]

و قيل: إن أبا الأسود دخل إلى منزله فقالت له بعض بناته: ما أحسنُ السماءِ. قال: أي بنية نجومها. فقالت: إني لم أرد أي شيء منها أحسن، و إنما تعجبت من حُسنها، فقال: إذن فقولي: ما أحسنَ السماءَ، فحينئذٍ وضع كتاباً.[70]

و قيل أن ابنة لأبي الأسود قالت له: يا أبت ما اشدُ الحرِ– في يوم شديد الحر– فقال لها: إذا كانت الصقعاء من فوقك، و الرمضاء من تحتك. فقالت: إنما أردت أن الحر شديد، فقال لها: فقولي إذن ما اشدَ الحرَّ. (والصقعاء: الشمس).[71] فهذه الظاهرة إذن هي التي دفعت أبا الأسود الدؤلي إلى أن يضع علم النحو.

هــوامش:

(1) ابن منظور: لسان العرب، تحقيق عامر احمد حيدر، دار الكتب العلمية، بيروت، ط 2003،1 مادة (ل،ح،ن).

(2) قاله في هجاء عبد الملك بن بشر بن مروان(102–103 هــ) ليحمل الأمير على إقالته، أنظر الجاحظ: الحيوان تحقيق عبد السلام هارون، مطبعة مصطفى الحلبي، 1356–1366، ج1، ص249.

(3) ابن الأثير: النهاية في غريب الحديث والأثر، تحقيق محمود الطناحي، دار الفكر.1979،ج4، ص241.

(4) البيتان في اللسان مادة (ل،ح،ن).

(5) المصدر نفسه ج4، ص241.

(6) القتال الكلابي: الديوان، تحقيق إحسان عباس، دار الثقافة بيروت، دط، 1989، ص20.

(7) قرآن كريم: سورة محمد، الآية30.

(8) زهدي أبو خليل: تصويب أخطاء لغوية شائعة، دار الثقافة الدوحة قطر، ط1، 2003، ص25.

(9) يوهان فك: اللغة العربية، ترجمة رمضان عبد التواب، مكتبة الخانجي، مصر، دط، 1980، ص36.

(10) محمد عيد: المظاهر الطارئة على الفصحى عالم الكتب، القاهرة، دط، 1980، ص12.

(11) محمد حسين آل ياسين: الدراسات اللغوية عند العرب إلى نهاية القرن الثالث، منشورات دار مكتبة الحياة، بيروت، ط1، 1980، ص169.

(12) السيد يعقوب بكر: نصوص في فقه اللغة العربية، دار النهضة العربية، بيروت، دط، 1970، ج1، ص215.

(13) أنظر: محمود فهمي حجازي، علم اللغة العربية، وكالة المطبوعات الكويت، ص115.

– السيد يعقوب بكر: نصوص في فقه اللغة العربية، ص215.

– محمود سليمان ياقوت: فن الكتابة الصحيحة، دار المعرفة الجامعية القاهرة، 2002، ص25.

– عبد العزيز مطر: لحن العامة في ضوء الدراسات اللغوية الحديثة، الدار القومية للطباعة والنشر القاهرة، 1966، ص57.

– إميل بديع يعقوب: معجم الخطأ و الصواب في اللغة، دار العلم للملايين، لبنان، ط1، 1983، ص25.

– فهد خليل زايد: الأخطاء الشائعة، دار البادوري للنشر و التوزيع، عمان الأردن، 2006، ص68.

– رمضان عبد التواب: لحن العامة والتطور اللغوي، دار المعارف، القاهرة، ط1، 1967، ص66.

(14) مجمع اللغة العربية: المعجم الوسيط، دار الأمواج بيروت، ط2، 1990، مادة (ع،م،م).

(15) المرجع نفسه مادة (خ،ص، ص).

(16) المرجع نفسه مادة (ع،م،م).

(17) أبو بكر الزبيدي: لحن العامة، تحقيق عبد العزيز مطر دار المعارف القاهرة، 1981 ص37.

(18) الجاحظ: البيان والتبيين تحقيق عبد السلام هارون، مكتبة الخانجي، ط5، 1985، ص137.

(19) ابن قتيبة: أدب الكاتب تحقيق محمد محي الدين عبد الحميد، دط، ص6.

(20) الكسائي: ما تلحن فيه العامة، تحقيق رمضان عبد التواب، مكتبة الخانجي القاهرة، ط1، 1982، ص99.

(21) أحمد محمد قدور: تراث لحن العامة مصدراً من مصادر المعجم التاريخي، وقائع الندوة التي نظمتها جمعية المعجمية العربية بتونس، بيت الحكمة قرطاج تونس، ط1، 1991، ص261.

(22) الزبيدي: لحن العامة، تحقيق عبد العزيز مطر دار المعارف القاهرة، دط، 1981، ص137.

(23) المصدر نفسه ص142.

(24) المصدر نفسه ص158.

(25) المصدر نفسه ص128.

(26) المصدر نفسه ص152.

(27) المفضل بن سلمة: الفاخر فيما تلحن فيه العامة، تحقيق عبد العليم الطحاوي، القاهرة، 1960، ص 246.

(28) ابن السكيت: إصلاح المنطق، تحقيق محمد عبد السلام هارون، دار المعارف، ط4، دت، ص227.

(29) الزبيدي: لحن العامة، ص146.

(30) المصدر نفسه ص143.

(31) ابن الجوزي: تقويم اللسان، تحقيق عبد العزيز مطر، دار المعارف القاهرة، دط، 1966، ص25.

(32) قرآن كريم : سورة هود.الآية34.

(33) الكسائي: ما تلحن فيه العامة، تحقيق رمضان عبد التواب، مكتبة الخانجي القاهرة، ط1، 1982، ص102.

(34) قرآن كريم: سورة النساء. الآية78.

(25) الحريري: درة الغواص، تحقيق عبد الحفيظ فرغلي علي القرني، دار الجيل بيروت، ط1، 1996، ص145.

(36) قرآن كريم: سورة يوسف. الآية40.

(37) الحريري: درة الغواص، ص419.

(38) قرآن كريم: سورة الكهف الآية33.

(39) الحريري: درة الغواص، ص398.

(40) ابن السكيت: إصلاح المنطق، ص287.

(41) ابن قتيبة: أدب الكاتب، تحقيق محمد محي الدين عبد الحميد، القاهرة، دت، ص18.

(42) الحريري: درة الغواص، ص83.

(43) المصدر نفسه ص578.

(44) الزبيدي: لحن العامة ص189.

(45) أبو الطيب اللغوي :مراتب النحويين، تحقيق محمد زينهم محمد عزب، دار الآفاق العربية القاهرة، دط، 2003، ص14.

(46) أبو بكر محمد الشنتريني: تنبيه الألباب على فضل الإعراب، تحقيق معيض بن مساعد العوفي، جدة، دار المدني، ط1، 1410هـــ، ص89.

(47) ابن الأنباري: الأضداد، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، الكويت، سلسلة التراث العربي، 1960، ص244.

(48) أبو الطيب اللغوي: مراتب النحويين، ص14.

(49) ابن الأنباري: الأضداد، ص244-245.

(50) المصدر نفسه، ص245.

(51) ابن قتيبة: عيون الأخبار، دار الكتب المصرية، القاهرة، ط1، 1928، ج2، ص158.

(52) المصدر نفسه ج2، ص158.

(53) قرآن كريم : سورة التوبة.الآية 24.

(54) أبو بكر الزبيدي: طبقات النحويين واللغويين، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، دار المعارف القاهرة، 1984 ص05.

(55) الأزهري: تهذيب اللغة، تحقيق عبد السلام هارون، الدار المصرية للتأليف والترجمة القاهرة 1964، مادة (ن،ح، و).

(56) محمد الدمياطي الخضري: حاشية الخضري القاهرة، 1940، ج1، ص10.

(57) محمد علي الفاروقي التهانوي: كشاف اصطلاحات الفنون، تحقيق لطفي عبد البديع، المؤسسة المصرية العامة للتأليف والترجمة، 1963، ج1، ص23.

(58) الأزهري: تهذيب اللغة، مادة (ن،ح،و).

(59) المصدر نفسه، مادة(نح،،و)

(60) ابن جني: الخصائص تحقيق محمد علي النجار، بيروت، ط2، 1952، ج1، ص34.

(61) عبد العزيز عتيق: المدخل إلى علم النحو و الصرف، دار النهضة العربية بيروت دت، ص135.

(62) ابن جني: الخصائص، ج2، ص331.

(63) كمال بشر: دراسات في علم اللغة، القسم الأول، دار المعارف مصر، 1969، ص28.

(64) عبده الراجحي: دروس في كتب النحو، دار النهضة بيروت، 1975، ص10.

(65) انظر: – تمام حسان: الأصول ص22.

– شوقي ضيف: المدارس النحوية، دار المعارف، ط3، القاهرة، ص13.

(66) عبد الله احمد جاد الكريم: الدرس النحوي في القرن العشرين، مكتبة الآداب القاهرة، دت، ص50.

(67) قرآن كريم : سورة التوبة، الآية23.

(68) أبو الطيب اللغوي: مراتب النحويين، ص17.

(69) جمال الدين القفطي: إنباه الرواة على أنباه النحاة، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، دار الكتب المصرية، 1950، ج1، ص15.

(70) المصدر نفسه ج1ص16.

(71) المصدر نفسه ج1ص16.